

بلْ هَذَا السُّؤالُ شَغَلَنِي شَخْصِيًّا! فَقَدْ طُرِحَ لِلْمَرَأَةِ الْأُولَى عِنْدَمَا بَدَأَتِ الدُّوَلَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ تَوَسُّعُ، وَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ تَنَشَّرُ بَيْنَ أَفْوَامِ وَشَعُوبِ أَخْرَى؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ تَحَدَّثَ الْلُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ هُمُ الْعَمَالِيقُ، وَهُمْ قَوْمٌ مِنْ أَقْوَامِ الْعَرَبِ الْبَائِدَةِ أَيِّ الْعَرَبِ الْقَدَمَاءِ. وَكَانَ الْعُلَمَاءُ وَالجُغرَافِيُّونَ الْعَرَبُ يَعْلَمُونَ بِوُجُودِ لُغَاتٍ أُخْرَى غَيْرِ الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْيَمَنِ وَشَبِهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَقَالَ الجُغرَافِيُّ الْيَمَنِيُّ الْكَبِيرُ "أَبُو مُحَمَّدَ الْهَمَدَانِيُّ" إِنَّهُ كَانَتْ فِي الْيَمَنِ آنَذَاكَ لُغَةً مَعْرُوفَةً بِاسْمِ الْلُّغَةِ الْحِمِيرِيَّةِ. فَقَدْ وَضَعَ أَحْرُفَ الْلُّغَةِ الْحِمِيرِيَّةِ فِي كِتَابِهِ "الْإِكْلِيلِ"، وَقَامَ بِمُقَارَنَةِ أَحْرُفَهَا بِأَحْرُفَ الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَوَجَدَ تَشَابُهًا بَيْنَ الْلُّغَتَيْنِ وَقَالَ إِنَّ فِي زَمَنِهِ، وَجَدُوا أَنَّ "الْهَمَدَانِيُّ" كَانَ عَالِمًا حَقًا بِمَا فَعَلَهُ قَبْلَ أَلْفِ سَنَةٍ! فَقَدْ أَصَابَ فِي تَشَبُّهِهِ لِلْأَحْرُفِ، يَقُولُ الْعُلَمَاءُ إِنَّ الْلُّغَاتِ الْيَمَنِيَّةَ تَطَوَّرَتْ بِشَكْلٍ مُسْتَقْلٍ عَنِ الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ. فَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ أَفْرُعَ مُتَعَدِّدَةٍ لِشَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ مُمْرِّمةٍ وَجَمِيلَةٍ جِدًا تَشَعَّبَتْ مِنْهَا الْلُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَالْلُّغَاتُ الْيَمَنِيَّةُ كُلُّهُ عَلَى حِدَى. وَبِالإِضَافَةِ إِلَى الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْجَنُوبِ، كَانَتْ فِي شَمَالِ شَبِهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ شَرْقِ الْمُتوَسِّطِ لُغَةً عَظِيمَةً هِيَ الْلُّغَةُ الْأَرَامِيَّةِ الَّتِي وَصَلَّ أَنْجُرُهَا إِلَى الْهِنْدِ وَإِيْرَانَ شَرْقًا وَشَبِهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ جَنُوبًا. كَيْفَ كَشَفَ نَقْشَ النَّمَارَةِ أَسْرَارَ تَطَوُّرِ الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَبْلَ إِسْلَامِ؟ وَلَكِنْ، فَقَدْ اكْتُشَفَتْ نُقُوشُ أَرْدُنِيَّةٍ عَرَبِيَّةً وَلَكِنَّهَا مَكْتُوبَةً بِأَحْرُفٍ يُونَانِيَّةٍ إِغْرِيقِيَّةٍ. فَيُسَبِّبُ هَذَا النَّقْشُ وَالْأَحْرُفُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْهِ، تَمَكَّنَ الْعُلَمَاءُ مِنْ أَنْ يَكْتُشِفُوا أَنَّ الْلُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ وُجِدَتْ قَبْلَ إِسْلَامٍ بِحَوَالِي مِئَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَتَيْنِ سَنَةً! وَهُنَا بَدَأَ دُورُ عُلَمَاءِ الْلِسَانِيَّاتِ بِإِيجَادِ السِّمَاتِ وَالبَصَمَاتِ الْخَاصَّةِ بِالْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي نَعْرَفُهَا الْيَوْمَ وَرَبِطُهَا بِالْلُّغَاتِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي تَكَلَّمُ عَنْهَا فِي هَذِهِ الْحَلْقَةِ، وَمِنْهَا عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ تَنَوِّيْنُ النُّونِ. فَنَحْنُ نَقُومُ بِالْتَّنَوِّيْنِ مُسْتَعْمِلِينَ حَرْفَ النُّونِ وَنَقُولُ "جَهِيدُ". أَمَّا هُمْ فَكَانُوا يُمْوِّمُونَ بِاسْتَعْمَالِ حَرْفِ الْمِيمِ وَيَقُولُونَ "جَهِيدُمُّ". وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ بِاسْتَعْمَالِ نُونِ السِّسْوَةِ وَتَشْكِيْلِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الظَّرِيفَةِ الَّتِي تَجْمَعُ الْلُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ بِشَقِيقَاتِهَا، إِنَّ أَهَمَّ الْنُقُوشِ الَّتِي اكْتُشَفَتْ حَتَّى الْيَوْمِ هِيُ نُقُوشُ حَرَّةٍ بِلَادِ الشَّامِ الْمُتَوَاجِدَةِ بَيْنَ جَنُوبِ شَرْقِ سُورِيَا حَتَّى شَمَالِ السُّعُودِيَّةِ مُرْوُرًا بِالْأَرْضِيِّ الْشَّرْقِيِّ لِلْمَمْلَكَةِ الْأَرْدُنِيَّةِ الْهَاشِمِيَّةِ، وَالْأَشْيَاءِ الَّتِي كَانُوا يَخْشُونَهَا وَالَّتِي كَانُوا يُحِبُّونَهَا، حَبِيبٌ، سَالِمٌ. بِالإِضَافَةِ إِلَى هَذَا، كَانَ الصَّفَاقِيُّونَ يُطْلِقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ اسْمَ الْعَرَبِ. وَيَقُولُ الْبَاحِثُ إِنَّ هَذَا النَّقْشَ كُتِبَ خِلَالَ سَنَةٍ "ظَمَّاً" مَرَّتْ عَلَى الْعَرَبِ، أَيْ أَنَّ صَاحِبَ النَّقْشِ يَعْتَبِرُ أَنَّهُ وَقَوْمُهُ مِنِ الْعَرَبِ. وَبِالإِضَافَةِ إِلَى الصَّفَاقِيَّةِ، وَقَدْ وُجِدَ نَصٌّ مِنْ هَذَا النَّوْعِ فِي "وَادِي السَّرْحَانِ" عِنْدَ الْحُدُودِ الْأَرْدُنِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ، وَكَانَ مُكْتَشِفُهُ وَمُوَثِّقُهُ هَذَا النَّقْشُ فَرِيقُ أَرْدُنِيُّ الْبَاحِثِ "هَانِي هِيَاجِنَةُ"، وَتُشَرِّرُ فِي مَجَالَاتِ عَلْمِيَّةٍ. وَلَكِنْ كَانَ بِإِمْكَانِنَا أَنْ نَفْهُمَهُ بَعْضَ الشَّيْءِ وَأَنْ نَعْلَمَ أَنَّهُ مَكْتُوبٌ بِالْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ. لَذَا عَلَيْنَا الْإِنْتِظَارُ قَلِيلًا لِأَنَّ الْمَوْضُوعَ صَعُبٌ، فَلَا يُمْكِنُنَا إِعْطَاءُ جَوَابٍ شَافٍ وَنَهَائِيٍّ. فَلَا بُدَّ أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْلَّحْظَةِ الَّتِي تَكَلَّمُ فِيهَا قَدْ تَوَصَّلَ الْعُلَمَاءُ إِلَى بَحْثٍ جَدِيدٍ. فَهُوَ مَوْضُوعٌ وَاسِعٌ وَغَزِيرٌ. وَمَعَ كُلِّ الْدِرَاسَاتِ وَالْأَبْحَاثِ وَالْجُهُودِ الَّتِي تَبْذُلُهَا نَحْنُ كَلُّمَاءَ وَمَعَ كُلِّ تَعْبِنَا وَسَهَرِ لِيَا لِيَا لِيَا